

لدى أبي عثمان، لذلك تتواتر الأحكام القاطعة والمقررات
الجازمة لدى النقاد، ولكننا واثقون أو كالواقفين بأن الجاحظ
كان دون إدراك الصورة المتكاملة لفكرة الكتاب، وبالتالي كان
دون القدرة على إنجاز «التأليف»، ولا سيما من حيث التصنيف
فسي «الأدب» .

واستقراء كتابيه الجوهريين في هذا المضمار يفضي إلى
تلمس شهادات ذاتية مدارها أن الجاحظ كان واقعا بين ضغطين :
كم المادة، وكيف التبويب، استبد به الأول فأفلت منه الثاني .
وتطفو هذه الحقيقة في شكل فقاقيع على سطح المقول الجاحظي
فإذا هو يبوح بما يدحض كون «الحيوان» كتابا بالمعنى المتكامل
المختص، وهذه شهادته :

«ولولا أنني أتكل على أنك لا تملُّ باب القول في البعير
حتى تخرج إلى الفيل، وفي الدرة حتى تخرج إلى البعوضة (...).
لرأيت أن جملة الكتاب وإن كثر عدد ورقه أن ذلك ليس ممَّا
يملُّ ويعتدُّ عليّ فيه بالإطالة، لأنّه وإن كان كتابا واحدا فإنّه
كتب كثيرة، وكلُّ مصحف منها فهو أمّ على حدة، فإن أراد
قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثاني،
ولا الثاني حتى يهجم على الثالث، فهو أبدا مستفيد ومستطرف،
وبعضه يكون جماما لبعض، ولا يزال نشاطه زائدا. ومتى خرج
من آي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى
خير، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن
النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سداد، ثم لا يترك هذا الباب